الإبداع بين التحليل النفسي والأدب في النقد العربي

د. عبد القادر مزاري*

ملخص:

انطلاقا من الفرضية القائلة أن جوهر العملية الإبداعية ترتكز أساسا على عملية النفسية وبالتالي فإن المبدع يعبر بطريقة انفعالية عما يؤلمه أو يسعده، ويتخلص بذلك من دواعي الهواجس الذي يعيشه بالتركيز على مادة الإبداع، وهو في النتيجة يصل بواسطة هذا العمل إلى عملية التظهير أثناء الإبداع ليأتي بعد ذلك دور النقد لتحليل الظواهر المختلفة التي تسهم في معرفة الدراسات الإنسانية.

الكلمات المفتاحية: الإبداع، علم النفس، الأدب، التحليل، الكبت، الرغبة، الخيال.

Résumé :

A partir de l'hypothèse qui avance que l'opération de créativité repose par essence sur le processus de la concentration psychologique, il est clair que le producteur exprime de manière émotionnelle ce qui le blesse ou le satisfait pleinement. Ceci lui évite toute appréhension vécue dés qu'il essaie de mettre l'accent sur l'objet de la créativité. Le résultat de celle-ci représente pour lui une forme de «catharsis » à laquelle découle le rôle de la critique littéraire lors de l'analyse des différents phénomènes qui contribuent à la connaissance des études humaines.

Mots clés : Créativité, Psychologie, littérature, analyse, répression, désir, imagination

مقدمة:

إن المتتبع للعلوم الإنسانية قد لا يجد ذلك الحاجز الفاصل بين العلوم الإنسانية، وبين بقية العلوم الأخرى، التي أوجدتها مجموعة من النظريات الناقلة للعقل البشري من الرحابة الموسوعية إلى ضيق التخصص، والانغلاق على الذات وفق معيارية نمطية ميزت علما عن آخر، كما أوجدت مقاييس تتميز عن أختها، إلا أننا نستشف من ذلك كله أن جوهر العملية الإبداعية مصدره أولا وأخيرا النفس البشرية.

ولعل ما يقرّب هذا المفهوم هو أن العلوم الإنسانية في شقها النفسي تتقاطع وعلوم اللغة والأدب، فكلاهما يحتاج إلى الثاني، ومن جهة أخرى فهي تشترك مع العلوم الإنسانية التي عرفها الإنسان، وهو أننا أمام مشروع نقدي يؤكد على ضرورة الاستفادة مما تنتجه العلوم الاجتماعية والإنسانية كالتاريخ وعلم النفس وعلم الاجتماع والسياسة على اعتبار أن النص يمثل منتجا ثقافيا يتم فيه البحث عن الأنساق الثقافية المضمرة والمتخفية داخل النصوص الأدبية.عماد ذلك كله كيفية قراءة النصوص.

وإذا كانت "دراسة كيفية القراءة تضفي على نظريات التلقي بعضا من صفاتها المميزة، فإن البحث في محتوى القراءة لهذه العلوم مجتمعة يؤدي في أغلب الأحيان إلى التساؤل عن معنى النص، أو عن معانيه"[1]،عن تلك المعاني التي تعوص في أغوار النفس البشرية التي أوجدت هذا الكامل الهائل من الإبداع، وبخاصة في شقها الأدبي، ومن هنا يطرح الإشكال نفسه هل باتت الدراسات النفسية مطالبة بتفسير كثير من الغموض الذي يكتنف شخصية الأديب؟وهل ينظر إليه على أنه شبيه بالعصابي (أو الذهاني) أثناء عملية الإبداع ؟أو أنه يختلف عنه ؟ أو أن الأديب شأنه شأن الدهاني إلا أن الفرق بينهما يكمن في كون الأول يعرف كيف يتحسس طريقة عودته إلى الحالة السوية بعد انتهائه من عملية الإبداع ؟وأن ذاك العصابي لا يجد مخرجا لحالته المرضية؟

ذلك ما يجعل البحث في علاقة علم النفس بالأدب، عمل يعيدنا إلى تحديد منهج موحد فيما يخص عملية الإبداع الفني، وأن فهم هذه العملية لا يختلف عن أهداف العلم بشكل عام، لأن الفهم والتحليل والتحديد، هو هدف الإنسان عبر مرّ العصور، ومنه بات على البحث تلمس الأواصر الرابطة بين علم النفس والعلوم الإنسانية، وبخاصة بينه وبين الأدب، وأظن أن هذا التلمس لا يكون إلا على أعقاب ما أنتجه المبدع من

* أستاذ محاضر (أ)، المدرسة العليا للأساتذة، مستغانم، الجزائر. mazariabdelkader@yahoo.fr

كتابات لأننا ندرك "أن الكتابة سلطة تمارس وظيفتها في ضبط وتنسيق الإنتاج الفكري وتستشف الآتي فتنير له الدرب" [2] وذلك ما يجعل الكتابة بمثابة تصور للوجود الإنساني، وأنها أداة للتعبير نحو الأفضل، وهي فرار من الواقع، وملاذ للنشوة والاستقرار.

1- بين علم النفس والأدب:

لقد اهتم أصحاب المدرسة التحليلية النفسية بدراسة الإبداع الأدبي، إذ عد كثير من النقاد أن الكتابة في التحليل النفسي هي " نقد صادق بناء غايته التغيير إلى ما هو أصلح وبالتالي فالكتابة تبشر بالخير وتزرع الفرح والمحبة، وتفضح الظلم والعدوان والقهر"[3] ولعل ما يثبت هذا الرأي هو أن (سيغموند فرويد) (Sigmund Freud) أنكر في خطاب ألقاه بمناسبة الاحتفاء بعيده السبعين، أن يكون صاحب الفضل في الكشف عن العقل الباطن، وقال إن الفضل الصحيح يعود إلى الأدباء [4]، واعترف بأن الذين ألهموا نظريته في التحليل النفسي هم الفلاسفة، والشعراء، والفنانون [5]، كما نجد أن لـ (هربرت ريد) (Herbert Reid) الإنجليزي موقفا خاصا حينما قال : "إن على الناقد أن يلتقط من السيكولوجية وبخاصة التحليل النفسي ألمع أسلحته، وإن الناقد قد يسأل في بعض المجالات أسئلة لا يجيب عنها إلا علم النفس، وإن علم النفس قد استطاع أخيرا أن يفسّر خفايا علم الجمال مثل التطهير، وما أشبه " [6]، فكل من الدراسات الأدبية والنقدية أفادت فائدة عظيمة من الدراسات السيكولوجية والجمالية واستثمرتا الدراسات التي أثار فيها أصحابها قضايا نقدية في ضوء الكشوف النفسية الحديثة.

ومنه يتبين لنا أن العلاقة القائمة بين علم النفس، والأدب لم تكن من علماء النفس وأقطاب النقد الأدبي في العصر الحديث فحسب، بل هي ترجع إلى جذور فلسفية صرفة ولعل من أهم الفلاسفة المهتمين بعلم النفس، والنقد النفسي للأدب (أرسطو طاليس) (Aristote Thales) الذي لم تخلو مؤلفاته من سيكولوجيته التجريبية، بل إنها المحور الذي يدور عليه "كتاب علم النفس "وكتاب (الطبيعيات الصغرى) وكتاب في (الذاكرة والتذكر) و(الرؤيا والتنبؤ) وغيرها.

كما نجد أن (أفلاطون) (Platon) هو الآخر قد أعطى أهمية لهذه العلاقة فهو في "الجمهورية" يرى أن الشعر يغذي العواطف، كما أنه ينظر في كتابه "إيون" على أن الشاعر مصاب بأمراض نفسية أو عصابية. ولم يتوقف ذلك عند هذا الحد، بل جاء دور الكتّاب الكلاسيكيين أمثال (لونجينوس) (Longinus) و (هوراس) (Horace) وغيرهم ممن اهتموا بالعلاقة القائمة بين النفس والفن.

ثم إن (سانت بيف) (Saint-Biff) وجد نفسه - من خلال بحثه عن وجود قانون يحكم الأسر الفكرية - في آخر المطاف مهتما بالشخصيات اهتماما بالغا، إذ ترددت بعد كتابات (سانت بيف)مقولة مفادها إن :"فهم العمل الأدبي غير ممكن إلا بفهم الإنسان الذي أنتجه"[7] وبهذا يكون قد أخذ السبق في إحداث ثورة في النقد جعلت الاهتمام ينصب على السيّر النفسية وبخاصة السيرة النفسية لصاحب الإبداع.

إلا أن (كولرج) وبمبادراته العظيمة في النقد النفسي، يكون قد وضع يده على اللاوعي دون الحديث عنه في كتابه "السيرة الأدبية" حينما أشار إلى : "انطلاقات وتأملات لا ضابط لها، وقد تخلى عنها الوعي الصريح كله، لأنها قد أصبحت شيئا مجردا شفافا، حين اجتازت حدود قوانا العقلية وأهدافها "[8]، من ذلك يتضح أن النقد بصفة عامة قد لمس الخفايا النفسية لحياة المبدعين والفنانين منذ بدايته، وحاول كل ناقد معرفة التأثيرات والانفعالات النفسية لصاحب الإنتاج، وظل الحال على ما هو عليه حتى نهاية القرن التاسع عشر.

ولم تظهر العلاقة بين الأدب، وعلم النفس إلا في نهاية القرن التاسع عشر، وذلك حين بدأ النقد يعتمد على التحليل النفسي في دراسة الأدب، وخاصة بعد أن نشر (فرويد) كتابه "تفسير الأحلام "سنة 1900 وفيه أشار إلى الآليات الأساسية في الخلق الأدبي، حينما تحدث عن توازن القوى العقلية، وأعراض الأمراض العصابية، وكذا مبدأ الحلم في تحقيق الرغبة في تطبيق الفن، والرمز الكامن تحت المعنى الظاهر، وعلاقته باللاوعي، ولعل هذه المبادئ التي أشار إليها تعد الحبل الرابط بين الأدب وعلم النفس.

من هنا نخلص إلى نتيجة مفادها أن علم النفس يؤثر تأثيرا مباشرا في الدراسة الأدبية فالنفس البشرية عند (يونج Jung) " هي الكم الذي تولدت منه كل العلوم والفنون... فلنا أن ننتظر من البحث السيكولوجي أن يشرح لنا تكوين العمل الفني من ناحية... ومن ناحية أخرى أن يشرح لنا العوامل التي

تجعل من الشخص مبدعا فنيا [9]، إذ أن العلاقة بين الفن والنفس علاقة مشتركة، وهي كالعملة الذي يكمل الوجه فيها الوجه الآخر.

2- مفهوم التحليل النفسي للأدب:

وحتى يتضح لنا هذا المفهوم فلا بأس إلى الإشارة إلى أن (فرويد) قد قسم الشخصية -كما هو معلوم- إلى ثلاث قوى (الأنا، و الهو، والأنا الأعلى) وحدد لكل منطقة وظيفة معينة فوظيفة (الأنا الأعلى) الضغط، ووظيفة (الهو) النزوع إلى ارتكاب المحرم، أما (الأنا) فهو يعاني التوتر الذي يسببه كل من (الأنا الأعلى) و(الهو)، وفي هذه الحال يعيش صراعا دون انقطاع بين هذه القوى الثلاث، وينعكس ذلك على سلوك الشخص، ولهذا الصراع آليات وهي وسائل دفاع أطلق عليها (فرويد) مجموعة من الأسماء منها : التسامي، التبرير، الإسقاط التعويض، النكوص، التثبيت، الاندماج، والتماهي، والانطواء، والعصاب، وغيرها. ويتخذ الفرد عبرها أشكالا دفاعية.

لقد شغلت هذه الآليات النقد المتعمد على التحليل النفسي في الأدب، خاصة ما قام به (فرويد) في كتابه" تفسير الأحلام "والذي ركز فيه على الأحلام وتوازن القوى العقلية وأعراض الأمراض العصابية، وهي مبادئ استغلها (فرويد)، والمحللون النفسيون ومنه أعطى هؤلاء عناية بالغة لتفسير الأحلام، وقسمت إلى أحلام يقظة، وأحلام النوم. وتحدثوا عن التكثيف، كما تمت الإشارة إلى الرمزية الكلامية فيه والرمزية المكانية والخلط بينهما وهي كلها اعتبرت الآليات الأساسية في الخلق الأدبي، وتمت دراسة مبدأ الحلم الأساسي والمتمثل في تحقيق الرغبة التي يمكن تطبيقها على الفن بصفة عامة.

ويظهر تأثير (فرويد) بالأدب في اهتمامه المتزايد بدراسة الأدب العالمية فحين سئل عن أساتذته الذين أثروا فيه وتأثر بهم أشار إلى رفوف مكتبته التي ضمت كمّا هائلا من روائع الآداب العالمية ويؤكد هذا قول (تريلنج)(Trilling) تأثير (فرويد) في الأدب لم يكن أعظم من تأثير الأدب في (فرويد) [10] إن ما قام به (فرويد) في مجال الطب النفسي لم يكن مصدره العيادة النفسية فحسب، بل استلهمه من "ثقافته الأدبية المتمثلة في الإطلاع الواسع من خلال لغات عديدة كانت خير عون له على تقوية اكتشافاته النفسية. وهنالك أمثلة كثيرة تدل على ذلك منها: أن التجاؤه إلى الشعر لتأويل معظم الدلالات الرمزية في الأحلام،و إلى مسرحية "و النشتين" (لشيلر) (Schiller) لتحليل القصد اللاشعوري للفلتة. وإلى الديوان الشرقي (لجوته) (Goethe) لتفسير نماذج من النرجسية"[11].وإذا كان (فرويد) قد أثّر في الأدب من الناحية الشكلية، كما أثر الأدب فيه، لم يخف الصعوبات المعترضة سبيله للتدليل على صحة افتراضاته، إلا أن الشيء الذي جعله لا يتوانى في سحب نظرياته على الظواهر الأدبية يكمن – في اعتقادنا – في تعجبه من أولئك الذين يصدِّقون المؤرخ الذي يتحدث عن الماضي السحيق، و ليس له من دليل سوى كتابة بعض المؤرخين، أو بعض الآثار. ولا يصدقون المحلل النفسي الذي يصدر أحكامه عن مشاهدة، ولا يوجد سبب واضح يدعوه إلى أن يَحْمِل الناس على الاقتناع بما لا يصدقه هو نفسه، ألا يكون إذن من يحيل على النفس والمشاهدة أقرب إلى التصديق ممن يحيل إلى الماضي والرواية ؟[12] وأن النفس التي تتلقى الحياة لتصنع الأدب هي النفس التي تتلقى الأدب لتصنع الحياة؟[13] فهو لا يتردد – أمام استنتاجه هذا – في إصدار حكم مسبق سبق به غيره من علماء النفس، وحتى العاملين في مجال النقد على نظرياته المطبقة على النتاج الفني عامة، والأدبي خاصة من قبيل التعسف.

إلا أن (فرويد) حين ذهب يحلل العمل الفني تحليلا نفسيا كان ينظر إلى "أن العمليات النفسية لا شعورية في لبها وجوهرها، أما العمليات الشعورية فليست إلا أفعالا منعزلة وفتاتا من الحياة النفسية جميعا"[14]، فقد لا تظهر العمليات اللاشعورية بصورة جلية إلا من خلال تداعي الفنان وانسياقه وراء خياله اللامحدود. وفيه دعوة إلى المحلل النفسي لتقصي إسقاطاته وإرجاعها إلى إحدى حالتي النفس السوية أو المرضية.

ولم يظهر تأثر (فرويد) إلا بعد اهتمامه بالقصد اللاشعوري للفلتة وتفسيره للدلالات الرمزية في الأعمال الأدبية، والفلتة - حسبه – هي عملية نفسية لا شعورية لا يقع فيها العصابيون فحسب، بل تطال حتى الناس العاديين. وقد تظهر في أشكال متنوعة منها : ما تعلق بالنطق، أو الكتابة أو السمع، أو الذاكرة. وإذا كان ينظر عامة الناس إلى الفلتات على أنها أمر اعتيادي لا يدعو إلى الاهتمام. فإن المحلل النفسي يجعله في أعلى اهتماماته ويرجع هذه العملية إلى اللاشعور، ومن هذا المنطق صنف (فرويد) الفلتة إلى

ثلاثة أصناف : فمنها ما هو شعوري يدركها صاحبها ويعترف بها، ومنها ما هو لاشعوري مبهم راجع إلى الهو ومنها ما هو مرفوض ينكره صاحبها.

وبالإضافة إلى ذلك يمكن القول إن (فرويد) لم يجعل اهتمامه منحصرا على الفلتة بل استطاع – موازاة لذلك – من خلال إطلاعه الواسع على الآداب اليونانية القديمة أن يحلل عمليات نفسية كالنرجسية في " الديوان الشرقي" (لجوته)، وباعتماده على الآداب الكلاسيكي كمادة لبحوثه النفسية، نجده قد وجه الأدب وجهة نفسية، إذ أنه اهتم بالصراع المشكل للمأساة فنظر إلى أن " الأدب الكلاسيكي وما فيه من مآس وصراع، وما يتخلل الذات فيها من سلوك ظاهر وباطن كون أن هذا الجانب يساعد طريقته في البحث ويزودها بالزاد الكافي لتعميقها"[15]، وبذلك تكون مساهمة علم النفس التحليلي في تعميق البحوث النفسية واضحة حين اعتمد على المنبع الأصل و المتمثل في الأدب، كون "علم النفس يبحث في الحياة العقلية شعورية كانت أو لاشعورية بمظاهرها الداخلية و الخارجية"[16]، وما العمليات والأعراض النفسية المستنبطة من الأدب إلا دليل على الحياة العقلية و النفسية الشعورية واللاشعورية المشكلة للعلاقة الرابطة بين التحليل النفسي والأدب.

ولقد دعم هذا الاستنتاج كثير من النقاد ومنهم ما رمى إليه (خلف الله) حين قال : "من الظاهر أن علم النفس كونه علم دراسة الخطوات النفسية، يمكن أن يستفاد منه في دراسة الأدب، فإن النفس الإنسانية هي الرحم التي تولدت منه كل العلوم والفنون، فلنا أن ننتظر من البحث السيكولوجي أن يشرح لنا تكوين العمل الفني من ناحية أخرى أن يشرح لنا العوامل التي تجعل من الشخص مبدعا"[17]. هذه العوامل مجتمعة جعلت النقد ينحو إلى الوجهة النفسية واهتم المحللون فيه بالتحليل النفسي للأدب، ولعل ما قام به (فرويد) في حديثه عن "عقدة أوديب" كان من قبيل ربط التحليل بالأدب، و ذلك حين عاد إلى التنقيب في طيّات الأدب العالمي الكلاسيكي، وتحليله لمذاكرات "ليوناردو دافنشي " وكذا تحليله لرموز حلم الشخصية ذاتها، وبالإضافة إلى ذلك فإنه قام بتشخيص حالات الكبت الموجودة في مسرحية "هاملت Hamlet " (لشكسبير) (Shakespeare) و"عقدة أوديب"، و" الزنا بالمحارم " زيادة إلى أعراض نفسية أخرى في أعمال أدبية كلها أظهرت دقة المنهج الفكري (الفرويدي) وقوته وعوقه وتركيبه.

3- تطبيقات التحليل النفسي:

إن التطبيقات التي نقصد مناقشتها هي التطبيقات (الفرويدية) التي ركزت على تحليل الدعائم، التي أوجدها (فرويد) واستخرجها في آن واحد وبصفة خاصة من بحثه، الأول عن (ليونارد دافنشي) (Léonard de Vinci) تحت عنوان " دراسة في السيكولوجية الجنسية" أما الثاني فخصصه للروائي الروسي الكبير (دوستويفسكي)(Dostoïevski) في "جريمة قتل الأب " .ولعل ما قام به (فرويد) كان من قبيل إثبات مقولة : إن وراء كل عمل أدبي عظيم سبب نفسي عظيم، حين ربط في دراسته التطبيقية العلاقة الوثيقة بين العملية الإبداعية والدوافع النفسية التي دفعت بالفنان إلى إيجاد هذا النتاج. وفي الوقت نفسه فقد أولى التحليل النفسي الفنان الأهمية البالغة لدراسة المبدع في حد ذاته وتفسير دوافعه، فللفنان طبع يختلف به عن غيره من الأشخاص العاديين فالطبع الانطوائي – مثلا – الذي يقترب من العصاب يجد الفنان نفسه فيه تحت ضغط الرغبة الملحة، والنازعة للإشباع. فإذا حدث ولم يتمكن الشخص من تحقيقها فإنه بطبيعة الحال لا يرضى بواقعه، ويتحول عنه مركزا اهتمامه الغريزي إلى الموضوع بفضل خياله، وبهذا الشكل ينقاد إلى العصاب بسهولة تامة لأن "إبداع الفنان رغبة في تخفيف عبء خاص وإلى محاولة تحقيق رغبات في عالم الخيال لم تشبع في عالم الواقع. وهذه الطريقة تؤدي إلى العصاب" [18]، فتحقيق الرغبة في عالم الخيال المؤدي إلى العصاب هو نوع من اكتشافاته التطبيقية النفسية، وقد يكون الإبداع مظهرا من مظاهر الهذيان " فالفنان إذا أبدع يترك أثرا وذلك الأثر يعد مظهرا من مظاهر الهذيان الناتج عند العصابيين الخلاقين المبدعين منحدرا من اللاشعور ويبرز في شكل رمز" [19]، فالهذيان نوع من العصاب لكنه خفيف الوطء على الفنان، وبواسطته يتجنب العصاب المرضي.

وعن ذلك يعلق (فرويد) بقوله : " فلكل منا طرقه الخاصة، وبتطابق النتائج يثبت أنه يعمل بإخلاص إنّ سيرنا يكمن في معاينة واعية للعملية النفسية المرضية عند الأخر،بغية اكتشافها وإصدار القوانين المتعلقة بها. أما القاص فيعمل بشكل مغاير فهو يركز انتباهه على لا وعي روحي ويعير أذنا صاغية لكل مضمراته معطيا إياها التعبير الفني بدل أن يكتبها بالنقد الواعي"[20]، فنظرة (فرويد) إلى الفنان

تتمثل أساسا في كونه عصابي من نوع خاص يتخذ من عمله الإبداعي الدرع الحصين، الذي يقيه المرض فهو "يحتفظ بمقدار من العصابية ليظل مبدعا"[21]، ومن هذا فإن (فرويد) أراد البحث عن علل السلوك في الماضي البعيد للطفولة المبكرة حين اهتم بدراسة في السيكولوجية الجنسية (لليوناردو دافنشي)، واعتمد على بعض الوثائق والصور التي تركها الفنان، فحاول تطبيق نظرية التحليل النفسي على شخصية فنان عصر النهضة، وهذا بعد أن تناول شخص النبي موسى –عليه السلام – في كتابه" موسى و التوحيد" ونشره سنة 1939، ولم يلق استحسانا من طرف المجتمع بالنظر إلى ما جاء فيه من آراء كالتعصب إلى الدّيانة اليهودية، و تهجمه المسعور على المسيحية والإسلام، إلا أن كتابه عن "ليوناردو" وإن لقي هو الآخر استهجانا من طرف المجتمع والسبب في ذلك راجع إلى الطرح الخاطئ في اعتقادهم الذي بنى عليه (فرويد) تحليله النفسي لشخصية هذا الفنان. إلا أن ذلك لم يثن من عزيمته في تطبيق نظرياته النفسية على نتاجه.

لقد جعل (فرويد) سيرة هذا الفنان مجال تجربة لتطبيق نظرياته في الجنس المكبوت وفي التطورات النفسية الجنسية، ومراحلها، والتثبت على بعضها. وقد عمد في جمع فرضياته على:

- أولا : جمع المذكرات التي كتبها (ليوناردو) عن نفسه، ومن أهم ما جاء فيها الحلم الذي تحدث فيه عن نفسه، وهو ما يزال طفلا يانعا، والذي مفاده أن نسرا ضربه على الفم بذيله، وقد فسر (فرويد) الحلم بالرغبة الجنسية، وينسب ذلك إلى تأثير الطفولة التي عاشها محروما من أبيه، وفي رعاية أم أعطته من الحنان ما يعوض به حنان الأب الذي كان انفصاله عنه لسبب أنه أب غير شرعي.لأن (فرويد) ينظر إلى أن الطاقات أنها "أساس الوظائف التي نسميها حياتنا النفسية"[22]، التي من شأنها التأثير.
- أما عن تفسيره لاستبدال الأم بالنسر فلا يرى عجبا في ذلك "لأن الأم تمثل في نقوش قدماء المصريين الهيروغلفين لصورة النسر (....) كما أن النسر كان رمزا للأمومة في المعتقدات القديمة لأنه كان يعتقد أن هذا النوع من الطيور لا توجد فيه إلا نسور إناث، وليس فيه ذكور،في وقت معين تتوقف هذه الطيور في خلال طيرانها وتفتح مهابلها للريح وتلقح بواسطة الريح "[23]، ويرجع نظريته هذه إلى طفولة (ليوناردو) بأنها كانت حافلة بالنضج الجنسي المبكر من جراء المحبة المفرطة التي أحاطته أمه بها. ولا عجب إن بنى (فرويد) قراءته هذه تعبيرا عما يختلج في نفسه وذاته [24]، لأنه ينظر إلى أن هذه الذكرى كانت تعني بالنسبة له أنه كان مثل هذا النسر طفلا له أم لكن ليس له أب. وأصبحت منطقة الفم عنده مشحونة شبقيا نتيجة لقبلات أمه إلا أن طفولته انتهت بالكبت، واجتناب أي نشاط شبقي مما جعله يعيش عفة تامة.
- ثانيا : ما دوّنه عن وفاة والده وهو الخطأ الشكلي الذي وقع فيه (ليوناردو) والذي قال: " في التاسع من يوليو 1504 يوم الأربعاء في الساعة السابعة مات " بيير دافنشيPierre Da Vinci " الموثق بقصر " آل بوديسا" أبي في الساعة السابعة كان في الثمانين من عمره"[25]، والخطأ هنا يظهر في تقديره للوقت على فترتين، وتفسير هذا الخطأ برغبة الابن لا شعوريا في إبعاد والده ليخلو له الجو وحده في امتلاك أمه وهو أيضا ما يفسره (فرويد) بنظريته في التنشئة الأسرية و(عقدة أوديب) وفترة التكوين تمتد بعد الخامسة، إذ أن الفترة التي عايشها في كنف أبيه بعد أن استرده في نحو الخامسة من عمره تغلبت عليه الرجولة، وهي الفترة التي انتسبت إليها أعماله الفنية التي تتسم بالرجولة. ويرى (فرويد) أن : " الكبت التام للنشاط الجنسي الحقيقي لا يهيئ أحسن الظروف للتسامي الحقيقي " [26]، فهو إذن مرتبط بتلك العلاقة السببية.
- ثالثا : مرض (ليوناردو) بالجنسية المثلية كان من تفسيرات (فرويد) في تحليل شخصية الفنان وعلل ذلك بكبته لرغبته الشبقية نحو أمه، ووفاء لحبه لها عزف عن بناء أية علاقة مع النساء، واشمأز من الجنس الصريح، بل إنه لا يرى أي إحساس جمالي في عملية الإنجاب وما يتصل بها، ولهذا تعقب الصبيان وأكد (فرويد) على ذلك بتفسيره أن (ليوناردو) قد أحاط بنفسه لما اشتهر كفنان بعدد من الصبية كموديلات [27]، وقد دفعت به الجنسية المثلية إلى اصطحاب مجموعة من تلاميذه المتصفين بالرقة، والجمال إلى أن توفي بفرنسا مع أحدهم، وقد يرجع سبب ذلك إلى ضعف الغريزة الجنسية لديه. هذا الضعف استطاع التسامي به وتعويض الإشباع الجنسي

بالإشباع الإبداعي الفني، وحول غريزة الجنس إلى غريزة المعرفة والفن.لكن ذلك لا يمنع من أن المتتبع قد يرد ذلك إلى تطـرف في التفسير كما يراه عز الدين إسماعيل[28]، أن ما قام به في رد كل الدوافع إلى مكبوتات جنسية هو من قبيل التعسف وليس كل تعسف وتطرف في رد المشاعر يعود إلى الدوافع الجنسية التي نادى لها (فرويد) بل هو في أغلبه تكلف في التفسير.

- رابعا:لقد التفت (فرويد) إلى ظاهرة عدم إتمام (ليوناردو) لوحاته وربط ذلك بعدم ربطه أية علاقة عاطفية مع النساء، واستنتج في الأخير أن الفنان كانت لديه قدرة هائلة على تهذيب جزء كبير من الغريزة الجنسية إلى نشاط فكري، ويعلل ذلك بقوله : "إن الكبت الجنسي له دوره هنا، وتتحول الغريزة الجنسية بالتسامي إلى حب للاستطلاع والبحث ويصبح البحث قهرا وبديلا للنشاط الجنسي"[29]. فالفنان في هذه الحال قد تسامى بالدافع الجنسي إلى أهداف فنية أخرى، وابتعد عن ضغط الدافع الجنسي.

لعل ما وصل إليه (فرويد) عن طريق التحليل النفسي، والمتمثل في اكتشافه للاشعور وكبت الرغبات المتصارعة في الحياة النفسية لدى الفرد. سواء أكانت هذه الرغبات وراثية أم مكتسبة، في ضوء الآليات التي أوجدها وأخضعها للملاحظة والتجريب، من خلال المعالجة الطبية لمرضاه داخل عيادته ؛كفيل لجعل (فرويد) يبدي آراء وتفسيرات للإبداع الفني والأدب ضمن هذا الزخم الفني هو إنتاج إنساني، والإنسان يصنع الحياة. فالأدب هو نسخة لهذه الحياة متأثرا بها ومؤثرا فيها. ولعل جل تفسيرات (فرويد) للإبداع الفني تتمثل في الدرجة الأولى في بحثين أساسيين هما : "دراسة في السيكولوجية الجنسية" عن "ليوناردو دافنشي"، ودراسته "لجريمة قتل الأب" لـــ" دستويفسكي".

وفي حالة فرضت هذه القاعدة نفسها يتدخل التأويل كمرجعية خاصة فى تفسير الظواهر النفسية، من هذا كله يمكن القول إن التحليل النفسي تباين فيه الباحثون فمنهم من يعد (فرويد) مفكرا أحدث ثورة في الفكر الإنساني "[30]، ومنهم من يرى أنه أساء التأويل نقس الماضي وسمم الحاضر وقاتل المستقبل " [31]، لذا ليس في وسعي إلا الحديث - كما سبقت الإشارة - إلى المريدين والمعارضين دون الانحياز إلى طرف وهذا درب كل باحث.

4- التحليل النفسي في النقد الأدبي العربي:

إن الحديث عن المنهج النفسي في النقد العربي، يستدعي التطرق إلى الدراسات النفسية الت ي خاض فيها أصحابها في استفادة الدراسات النقدية من الأسس النفسية، ويمثلها في القسم الأول كل من : (محمد خلف الله) تظهر من خلال كتابه متأثرا بالنقاد الغربيين داعيا إلى الأخذ بالمنهج العلمي في دراسة الأدب، بل ذهب إلى أكثر من ذلك حيث دعا إلى استحداث منهج علمي يكون بمثابة روح العلم في نزوعه إلى المعرفة، ويحفظ على الأدب ذاتيته وموضوعيته معا، ويرتفع بالنقد عن مجرد أثر تحدثه في النفس طوارئ الانفعالات والميول الشخصية "[32]، وبذلك يظهر (خلف الله) نزوعه إلى الوجهة النفسية لنقد الأدب العربي ويحدث على نهجها.

أما (محمد النويهى) :فان ما يمكن استخلاصه من كتابه بتمثل في ثقافة الناقد الأدبي"وهو حثه للنقاد على الاستزادة من الثقافة العلمية حتى يتمكن من فهم أسرار النفس وعدم الاعتماد الكلى على الثقافة ودراسة الديوان لأن الأدب هو تعبير عن نفسية الأديب فالفنان "في نظر (النويهي) إنسان تنازعه تيارات متضاربه تبلل حياته رغبات كثيرة "[33]، لذا فمن الضروري الاستعانة بالثقافة العلمية لتفسير هذه النزعات واكتشاف الرغبات المتصارعة.

وعن (حامد عبد القادر) :فإن كتابه "دراسات في علم النفس الأدبي هو عبارة عن محاضرات استطاع حامد "إفادة النقد العربي بها إذ أنه رأى أن الأدب يساهم في التخلص من الرغبات المكبوتة. التي ظلت مكبوتة بطريقة أو بأخرى وتمكن من خلالها الأديب من تفريغها، فتلذذ لفترة من الزمن مما مكنه من الشعور بالسعادة وطرح ما يؤلمه.

ولعل كتاب (مصطفى سويف) : "الأسس النفسية للإبداع الفني " قد شمل الكتب الثلاثة المذكورة آنفا، وزاد عليها في كونه لم يكتف بالتحفيز على اتخاذ المنهج النفسي في الدراسة النقدية للأدب العربي، ولم يقف عند التوجيه إلى الاستفادة من الثقافة العلمية بشكلها النظري ولم ينته به المطاف إلى الإشارة إلى أن الأديب يعمد إلى طرح ما يؤلمه من ضغوط مكبوتة وجلب السعادة والانفراج، إنما ذهب إلى أبعد من ذلك

حين أوجد طريقة أطلق عليها المنهج التجريبي الموجه، وفيه حاول تطبيق الدوافع النفسية في عملية الإبداع الفني، مبديا كثيرا من آرائه وتطبيق الاستمارة الإستخبارية على شعرائه والعودة إلى ماضيهم ليتسنى له دراستهم ثم البحث في مسودات قصائد الشعراء، إلا أن ذلك لا يتوافق فيه (سويف) مع التحليل النفسي الذي عارض كثيرا من أفكاره عكس الكتاب الثلاثة المذكورين أنفا الذين تأثروا بمدرسة التحليل.

وفيما يخص (محمد مندور) : فإنه كان من الذين عارضوا الاتجاه النفسي في النقد العربي ورفض إدخال المعارف العلمية، و"أبدى تخوفه من أن يصيب هذا الاتجاه حياتنا الأدبية "[34] ولقد حذر من جعل النقد تتحكمه نظريات نفسية، وأحكام تعسفية من طرف علماء النفس ومنه يجعل الأدب في ضوء علم النفس منحصرا في فلك الرموز، والعقد النفسية والابتعاد عن الدراسة الجمالية للأدب، ويعلق (أحمد حيدوش) على موقف (محمد مندور) بأنه مشابه لموقف الأوساط الفرنسية، التي رفضت الاستعانة بعلم النفس لفهم الأدب، كما أنها رفضت اللاوعي من القاموس العلمي، وربط هذه المشابهة التي عقدها مندور بتواجده بفرنسا لمزاولة دراسته (بالسربون La Sorbonne)، وأظهر تأثره بالمدرسة الفرنسية.

وإن (طه حسين) :يُنظر إلى موقفه من اتجاه الدراسة النفسية أنه موقف لين وقف فيه صاحبه موقف الوسط تجاه الدراسة النفسية للنقد الأدبي، كونه قبل بالاتجاه النفسي، وأبدى نوعا من التحفظ على كثير من دعائم التحليل النفسي، أما عن الدراسة التي أقامها فتمثلت خاصة في غرض الغزل في صدر الإسلام والأموي، ونظر إليه من الوجهة النفسية الاجتماعية، واهتم بدراسة حياة الشعراء كما اتخذ الفقر، والبؤس عوامل دفعت بأهل البادية إلى النظم في هذا الغرض، كما أرجع ذلك للثروة والغنى الفاحش. الذي عايشه شعراء الحضر، واهتم بتحليل شخصيات غرض الغزل في البدوي والحضر تحليلا نفسيا وميز العواطف المتصارعة بين الفئتين.

ومن الشعراء الذين اهتم (طه حسين) بدراستهم (قيس بن الملوح، وقيس بن ذريح) ففي دراسته لـ(ابن الملوح) يصل إلى نتيجة من خلال تحليله لهذه الشخصية في قوله : "إن الجنون والمرض هما اللونان اللذان يميزان نفسه ويحددان شخصيته"[35] لأن المرأة بالنسبة له ليست بحاجة تطلب أو شيء يطمح فيه، إنما هي شرطه الثاني المكمل لنفسه.أما بالنسبة لـ (ابن ذريح) فيرى أنه مصاب (بعقدة أوديب) في ديوانه الشعري وقد ركز على ما جاء من أخبار "لأبي (فرج الأصفهاني) في كتابه " الأغاني" وهي إحدى دعامات التحليل النفسي (الفرويدي)، حيث انطلق من (عقدة أوديب) في تحليل شخصية المبدع والإبداع الأدبي.

أما من وجهة نظر(عباس محمود العقاد) فإن في دراسته "لسلسلة العبقريات " ما يؤكد تأثره بالمنهج النفسي حيث اهتم بتحليل مواطن العبقرية في أشخاصها، والتنقيب عن عوامل العظمة التي تحيي موات الأمم، والتركيز على تحليل هذه الشخصيات جاء من قناعة مفادها أن : "مفتاح الشخصية هو الأداة الصغيرة التي تفتح لنا أبوابها، وتنفذ بنا إلى أسوارها وجدرانها، وهو كمفتاح البيت في كثير من المشابه والأغراض (...)ولكل شخصية إنسانية مفتاح صادق يسهل الوصول إليه أو يصعب حسب اختلاف الشخصيات "[36]، ولعل ذلك ما جعل (العقاد) يهتم بدراسة شخصية أبي نواس التي اكتشف فيها آفة النرجسية وهي التي فتحت له عالم أبي نواس، ومنها استطاع تحديد مشكلة الإبداع لدى هذا الشاعر "وقد حاول أن يفصل عاهات الشاعر في ضوء الآفات التي تجتمع تحت اسم النرجسية "[37]، وهي "الاشتهاء الذاتي والتوثين الذاتي [38]، لازمة التلبيس والتشخيص، لازمة العرض، لازمة الارتداد"[39]، ومن ثم استطاع (العقاد) التأكيد على آفة النرجسية، وينظر إلى أنها العاهة الوحيدة التي تفسر حياة الشاعر .

و يفضل (العقاد) مدرسة النقد السيكولوجي، أو النفساني كما أسماها، لما لها من خصوصيات في تفسير ظاهرة الإبداع فيقول : "إن النقد السيكولوجي يعطينا كل شيء إذا ما أمدنا ببواعث النفس المؤثرة في شعر الشعراء ويؤكد على أن هذه البواعث تحيط بمجتمع الشاعر وبيئته"[40]، فالمؤثرات النفسية عند (العقاد) ماهية إلا تعبير عما لقيه الشاعر في مجتمعه وفي زمانه و أن للفنان بواعثه النفسية و مؤثراته الخارجية.

و قد ركز (العقاد) على عاملين هامين نرى فيهما تشكل الذات المبدعة. و هما : البحث عن الذات المبدعة بشقيها الجسمي والنفسي، والبيئة التي تساعد في تكوين هذه الذات بوصفها مرجعا يفرض نفسه، لأنها

سبب ساهمت بشكل كبير في بلورة هذه الذات. ولقد طبق ما توصل إليه من قواعد نقدية على كل من (أبي نواس، وابن الرومي)، لأجل الوقوف عند معالم الإبداع لدى الفنانين.

ولم يكتف (العقاد) في دارسته بأشعار (أبي نواس)، بل استعان بسيرته القبلية، واكتشف أنه "كان حسن الوجه، رقيق اللون، أبيض، حلو الشمائل، في حلقه بحة لا تفارقه "[41]، وهي كلها علامات مورفولوجية وغدد مسيطرة جعلت من أبي نواس ضعيف الرجولة شاذ مصاب بنرجسية ولدت معه، "أنه لو نبت في بيئة اجتماعية تخالف بيئته تلك لما أثنى عنانه لغير المواطن التي تجذبه إليه آفته النفسية "[42]، واكتشف العقاد عاهة أخرى أضيفة إلى النرجسية تمثلت في مركب النقص عند (أبي نواس) جراء جهله لنسبه، فعوضها بمعاقرة الخمر للتخفيف من حدّة الصراع النفسي.

هذا بعض من النقاد في الأدب العربي الذين أعطوا العناية البالغة لدراسة النقد الأدبي وفق الدراسة النفسية، التي حاولت المقاربة النفسية في دور الآليات التي تعد الركيزة الأساس في عملية الإبداع الفني في نظر أصحاب التحليل النفسي كما تطرقت علاقة الأدب بعلم النفس من خلال الإشارة إلى بعض النماذج الإبداعية للفنانين والأدباء. ونظرا لكون الإبداع الأدبي من إنتاج الإنسان الخاضع إلى حتمية بيولوجية وأخرى اجتماعية، فهو دائم النزوع إلى التعبير عما تعانيه نفسه من مشاعر أو أحاسيس، هدفه في ذلك التوفيق بين صراع الغرائز، وصراع الواقع وبينهما يسعى المبدع باحثا عن مواطن اللذة، وتجنب الألم الذي قد يسبب له في كثير من الأحيان مرض العصاب، وإن ما توصل إليه من نتائج في نهاية هذا البحث تمثل في نقاط تتدخل في العملية الإبداعية منها:

- لم تعرف علاقة علم النفس بالأدب إلا من خلال أصحاب التحليل النفسي، وعلى رأسهم (فرويد) وتلامذته، وما قام به المنظرون لعلم النفس والفلاسفة، والنقاد، لا يمكن تصنيفه إلا في إطار البوادر الأولى للدراسة التحلينفسية.
- إن كثيرا من المحللين النفسانيين كـ(فرويد) و(يونج) و(أدلر) وغيرهم لم يدرسوا الأدب إلا بغية تأسيس التحليل النفسي كمعلم من معالم الدراسات النقدية للأدب، وهو الشيء الذي جعل (فرويد) يعدل عن الطرائق العلاجية النفسية، ويطبق التحليل النفسي على الفنانين، وعلى إنتاجهم الإبداعي، بداية من محاولة اكتشاف الأسرار الكامنة وراء إبداع أحد كبار عصر النهضة والمتمثل في (ليوناردو دافنشي).
- يرى (فرويد) وتلامذته أن اللاشعور هو عبارة عن خزان عمليات الإبداع الفني إذ بواسطته يمكن للفنان التخفيف من الضغوط الداخلية التي يعيشها غير مهتم بمتطلبات الواقع، ولا تتم عملية الإبداع إلا من خلال إشباع الرغبات الشبقية المكبوتة، والتي لازمت المبدع منذ عهد الطفولة الأولى، لأن هذه الرغبات تنزع دوما التأثير في الحياة الشعورية تأثيرا لاشعوريا.
- إن جل الدراسات التي مست الشخصيات الأدبية طغى عليها الطابع العلمي أكثر من الطابع الأدبي، إلا أن العمل الأدبي ما هو إلا مجموعة نوازع ورغبات تعيش في اللاشعور منذ زمن الطفولة الأولى لا يمكن الاستغناء عنه.

الهوامش:

1- سيد قطب وآخرون: في أدب المرأة، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، ط1، 2000،ص113.
2- بشير يخلف: الكتابة والبوح الإمتاع، مجلة ثقافة، ع3، 4 مارس 2004، ص 35.
3- د. حسن مصطفى سحلول، نظريات القراءة والتأويل الأدبي وقضاياه، اتحاد الكتاب العرب، 2001، ص9.
4- ينظر: ستانلي هايمن: النقد الأدبي ومدارسه الحديثة، ت. د.إحسان عباس، و د.محمد يوسف نجم -دار الثقافة- بيروت،ج1 ص 262.
5- بنظر: سيغموند فرويد: تفسير الأحلام ص 11.
6- ستانلي هايمن: النقد الأدبي ومدارسه الحديثة، مصدر سابق ص 272.
7- المصدر نفسه ص 272.
8- المصدر نفسه ص 260.

9- محمد خلف الله، من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده -مطبعة لجنة التأليف - القاهرة ص 22. د.ت
10- ينظر: ابن حلي عبد الله، الفكر الفرويدي وأثره في النقد العربي، بحث مقدم لنيل دكتوراه في الأدب جامعة الجزائر، 1988، 1989، ص 63.
11- ينظر: المصدر نفسه ص 63.
12- ينظر: فرويد، محاضرات تمهيدية، ص 12.
13- د. عز الدين إسماعيل: التفسير النفسي للأدب، دار المعارف، مصر ط1، 1963، ص1.
14- المصدر نفسه ص8.
15- ينظر: عبد الله بن حلي: مصدر سابق ص 63 وما بعدها.
16- مصطفى عشوي: مدخل إلى علم النفس، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص 2.
17- محمد خلف الله: مصدر سابق، ص 22.
18- د.عز الدين إسماعيل: التفسير النفسي للأدب، مصدر سابق، ص 7.
19- عبد القادر فيدوح: الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي، إشراف رجاء عيد، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه 1989- 1990. ص 36.
20- ينظر المصدر نفسه، ص 37
21- سمير أبو حمدان: الإبلاغية في البلاغة العربية، ط1، منشورات عويدات الدولية، بيروت، باريس، 1991 ص 6.
22- سيغموند فرويد: الموجز في التحليل النفسي، تر،د.سامي محمود علي وعبد السلام القفاش، مراجعة، مصطفى زيور، دار المعارف، مصر ط4 1998، ص62.
23- د. علي معطي محمد: فلسفة الفن رؤية جديدة، الصدر السابق، ص 84.
24- ينظر: سيزا قاسم: القارئ والنص، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة 2002، ص 106
25- المصدر نفسه، ص 87.
26- د.عبد المنعم الحنفي: المعجم الموسوعي للتحليل النفسي، مصدر سابق، ص 494.
27- المصدر نفسه ص 494.
28- د.حاتم الصكر: ترويض النص ص 155.
29- عبد المنعم الحنفي ص 494.
30- عبد الله بن حلي: مصدر سابق ص 103.
31- المصدر نفسه ص 103.
32- المصدر نفسه ص 127.
33- المصدر نفسه ص 125
34- د.أحمد حيدوش: الاتجاه النفسي في النقد العربي الحديث، مصدر سابق ص 143.
35- طه حسين: حديث الأربعاء، المجلد الثاني، دار الكتاب اللبناني للطباعة بيروت، ط2، 1974 ص 202.
36- د.عبد القادر فيدوح: الاتجاه النفسي في الشعر العربي، المصدر السابق ص 131.
37- شايف عكاشة: اتجاهات النقد المعاصر في مصر، ص 125.
38- الاشتهاء النفسي: وهو أن تشتهي نفسه بدنه. والتوثين الذاتي: وهو الذي يتصل بالنواحي الفكرية والأدبية والعاطفية والجسدية، فيتخذ المصاب من نفسه وثنا يعبده ويدلّله.
39- شايف عكاشة: اتجاهات النقد المعاصر في مصر، مصدر سابق ص 125.
40- عباس محمود العقاد: يوميات، مطابع دار المعارف، مصر، 1969، ص 10.
41- ماهر حسن فهمي: المذاهب النقدية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1962، ص 92.
42- أحمد حيدوش: مصدر سابق، ص 126.